

المبحث السادس

سنة الله في الأخذ بالأسباب

إن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدر النتائج و المسببات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذهل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الغرية، فالأسباب مقدرة كالمسببات⁽¹⁾، وقد قال رسول الله ﷺ لمن سأله عن الرقي، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ قال: «هي من قدر الله»⁽²⁾، وحياء الرسول ﷺ وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كل الوسائل والتدابير وأسباب العمل⁽³⁾.

إن سنن الله في كونه وشرعه تحتم علينا الأخذ بالأسباب كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره وهو رسول الله ﷺ، لقد قاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرضى بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد وكان يستعيد بالله من الهم والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر

(1) منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في العقيدة (1/ 428).

(2) سنن ابن ماجه (2/ 1137)، رقم 3437 حسن صحيح.

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 391.

لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء، وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: «اعقلها وتوكل»⁽¹⁾.

وقال: «وفر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽²⁾، وما غزواته المظفرة ﷺ إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعد الجيوش، وبعث الطلائع والعيون وظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وأقعد الرماة على فم الشعب، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيلة في هجرته، أعد الرواحل التي يمتطيها والدليل الذي يصحبه وغير ذلك الطريق، واختبأ في الغار⁽³⁾، وكان إذا سافر في جهاد أو عمرة حمل الزاد والمزاد وهو سيد المتوكلين.

وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب ولهذا أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذا المعنى، وفهموا أن الإيمان بالقدر لا يعني ترك الأخذ بالأسباب، ولهذا أنكر عمر عن أبي عبيدة رضي الله عنه ربطه القدر بعدم الأخذ بالأسباب، كما ورد في قصة طاعون عمواس الشهير، فحين همّ عمر بالرجوع إلى المدينة في حدود الشام، قال له أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فدهش عمر لهذا الاعتراض وقال لأبي عبيدة: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم أردف قائلاً: أرايت لو كان إبل هبطت

(1) رواه ابن حبان بإسناد صحيح عن عمرو بن أمية الضميري.

(2) البخاري، ك الطب باب 19 (5/ 5380).

(3) عقيدة التوحيد سعاد ميبر، ص: 212.

وإدياً له عدوتان إحداهما خصيية والأخرى جدية، أليس إن رعيت الخصبية رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدية رعيتها بقدر الله⁽¹⁾.

فعمرو وأبو عبيدة يعلمان أن القدر علم الله السابق بما يحدث غير أن عمر كان يرى أن قدر الله لا دخل له في موضوع ربط الأسباب بالمسببات، فالذهاب إلى الشام مع وجود الطاعون يتسبب عنه الموت والرجوع أخذ بالأسباب للنجاة من الطاعون، ولهذا أنكرو عمر على أبي عبيدة أن يعترض عليه قائلاً له: لو غيرك يا أبا عبيدة، ولم يكتف بذلك، بل شرح رأيه بأن الذهاب إلى الشام ذهاب بقدر الله، والرجوع إلى المدينة رجوع بقدر الله، أي بعلم الله، مما يدل على أن القدر لا يصح أن يربط بالإقدام على الأعمال أو الإحجام عنها، ولا يصح أن يترك الأخذ بالأسباب بحجة القدر⁽²⁾.

ولهذا يذهب ابن القيم إلى: أن الدين هو إثبات الأسباب والوقوف معها والنظر إليها، وأنه لا دين إلا بذلك كما لا حقيقة إلا به، فالحقيقة والشريعة مبناهما على إثباتها أي «الأسباب» لا على محوها، ولا نكر الوقوف معها، فإن الوقوف معها فرض على كل مسلم، لا يتم إسلامه وإيمانه إلا بذلك «الإيمان»، وبالأسباب عرف الله وبها عبد الله، وبها أطيع الله وبها تقرب إليه المتقربون، وبه نال أولياؤه رضاه، وجواره في جنته، وبها نصر حزبه ودينه، وأقاموا دعوته، وبها أرسل رسله وشرع شرائعه، وبها انقسم الناس إلى سعيد

(1) البخاري، ك الطب رقم 5729.

(2) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلي، ص: 391.

وشقي، ومهتد وغوي، فالوقوف معها، والالتفاف إليها، والنظر إليها، هو الواجب شرعاً، كما هو الواقع قدراً⁽¹⁾.

إن قدر الله حق وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط⁽²⁾.

أولاً: الأخذ بالأسباب في القرآن الكريم:

القرآن الكريم حافل بالآيات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، خاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد، ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد⁽³⁾.

1 - قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال: 60].

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى، على اختلافها وتنوعها، ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بإرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ

(1) مدارج السالكين لابن القيم (3/ 407. 408).

(2) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 51.

(3) السنن الإلهية في الأمم والأفراد. مجدي عاشور، ص: 61.

بأسبابها، لأن التمكين لهذا الدين طريقه الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل وقد قال الأصوليون: وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب⁽¹⁾.

وفي قوله: ﴿مَا أَسْتَظَعْتُمْ﴾ قال ابن كثير: أي مهما أمكنكم وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة، بحيث لا يقعد المسلمون عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها⁽²⁾، والمراد بالقوة هنا: ما يكون سبباً لحصول القوة ولهذا:

- قال أصحاب المعاني: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما تتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة وورد أن النبي ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال: «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثاً⁽³⁾. وهذا لا ينفي كون غير الرمي معتبراً كما قوله: «الحج عرفة»⁽⁴⁾. وقوله: «الدين النصيحة»⁽⁵⁾. لا ينفي اعتبار غيره، بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا⁽⁶⁾. كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة «قوة» هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات. وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة⁽⁷⁾، وتدخل القوة

(1) في ظلال القرآن (2/ 919).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 221.

(3) مسلم مع شرح النووي (13/ 64).

(4) مسلم، ك الإيمان (1/ 74).

(5) المصدر نفسه.

(6) تفسير المنار (5/ 53).

(7) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 89 محمد السيد يوسف.

الاقتصادية، والسياسية، والأمنية والإعلامية، . الخ ومعنى "رَبَاطٍ الْخَيْلِ": هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى⁽¹⁾.

ومعنى ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ قال الطبري: هم كل عدو للمسلمين، وذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرَيْنَ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك يفيد أمور كثيرة:

- أنهم لا يتجرأون على دخول دار الإسلام.

- أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم باحترام المسلمين والاستجابة لطلباتهم.

- أنه ربما صار ذلك داعياً إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم.

- أنهم لا يعينون سائر الكفار.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فهم يواجهون نظاماً عالمياً وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار ويقابلوا الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه وبكل ما امتدت إليه يدهم، وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في هذا العصر من سلاح وعتاد

(1) تفسير النسفي نقلاً عن فقه النصر والتمكين، ص: 221.

واستعداد حربي، لا يقصرون في ذلك ولا يعجزون⁽¹⁾.

إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتقدم وترقى في مصاعد المجد، أن تجاهد بمالها ونفسها الجهاد الذي أمرها الله به في القرآن الكريم مراراً عديدة، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها، فإذا تعلمت هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف⁽²⁾.

إن إعداد القوة يستدعي إنفاقاً، وقد تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 60] ، وقد جاء التحذير من عدم الإنفاق في سبيل الله، مع بيان أن ذلك سبب للإهلاك والمذلة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، أي: إذ لم تبدلوا في سبيل الله وتأييد دينه كل ما تستطيعون من مال واستعداد فقد أهلكتم أنفسكم، ففي الآية: النهي عن ترك الإنفاق في سبيل الله لأنه سبب الهلاك⁽³⁾، وقد بين أبو أيوب الأنصاري ﷺ سبب نزول هذه الآية، فعن أسلم بن عمران قال: كنا بمدينة الروم «القسطنطينية» فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، فحمل رجل من المسلمين على صف للروم حتى دخل فيه فصاح الناس وقالوا: سبحان الله، يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل:

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوي، ص: 225.

(2) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم، شكيب أرسلان، ص: 164.

(3) الكشاف للزمخشري (1/ 343).

وإنما أنزلت فينا معاشر الأنصار، لما أعزَّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًّا دون رسول الله ﷺ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يرد علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركها الغزو⁽¹⁾.

وعموم الآية يقتضي الإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء وبذلها فيما يقوي به المسلمون على عدوهم والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده⁽²⁾.

إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين، سنة الأخذ بالأسباب ولذلك يجب على أفراد الأمة وقادتها العاملين للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.

إن الله ﷻ أمرنا بالإعداد الشامل في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: 60]، وإعداد القوة في حقيقته الأخذ بالأسباب الشاملة، كقوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد، إن الآية الكريمة تضع إذهان المسلمين على الإعداد الشامل المعنوي والمادي، والعلمي

(1) سنن الترمذي (5/ 212) حسن صحيح غريب.

(2) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 164.

والفقهية على مستوى الأفراد والجماعات وتدخل في طياتها الإعداد التربوي، والسلوكي، والإعداد المالي، والإعداد الإعلامي والسياسي والأمني والعسكري⁽¹⁾.

2- قال تعالى: ﴿وَسْتَأْذِنُكَ عَنْ ذِي الْقُرَيْنِ قُلْ سَأْتَلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ۝٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَايَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلًا ۝٨٤﴾ فَأَنْبَعِ سَبِيلًا ۝٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْبٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرَيْنِ إِمَّا أَنْ تَعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ نَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ۝٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمرَانِ يُسْرًا ۝٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعِ سَبِيلًا ۝٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سَبِيلًا ۝٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ۝٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعِ سَبِيلًا ۝٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۝٩٣﴾ قَالُوا يَبْدَأُ الْقُرَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۝٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلُمْ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُمْ نَقْبًا ۝٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاهُ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۝٩٨﴾ [الكهف: 83].

[98]

فقد وازن ذو القرنين بين الأسباب التي أتاحتها الله له واتبعتها واستقصاها، حتى إن القرآن يلح على ذلك ويبينه ويكرر التزامه في

(1) فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، ص: 214.

العمل بالأسباب، وذلك في مواضع ثلاثة من الآيات التي أشرنا إليها حيث يقول: ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ وبعدها يكرر: ﴿ثُمَّ أَنْبَعِ سَبَبًا﴾ ﴿٨٩﴾، وقرن ذو القرنين بما انطوى عليه من أسباب معنوية، وما كان عليه من إيمان وتقوي وعمل صالح في قوله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾، فاجتمعت له الأسباب الظاهرة والباطنة فكان له التمكين والغلبة ونفع الناس وإعانتهم⁽¹⁾.

وذو القرنين علم قرآني بارز، خلد الله ذكره في كتابه الخالد، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل الخاشع لربه والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح، والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغرره مال ولا منصب، ولا جاه ولا قوة ولا سلطان، بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهباً لليوم الآخر ليلقى جزاءه العادل عند ربه ويكفي أن يبقى ذو القرنين تلك الشخصية العظيمة في التاريخ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح والقيادة، ومثال الحاكم الصالح على مر التاريخ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بشهادة الكتاب الخالد⁽²⁾.

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

- الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخرلتنفيذ شرع الله في الأرض وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 167.

(2) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان، ص: 247. 249.

الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

- الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرائية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له فتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية، بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا.

- الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها حيث آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً.

الأسباب التي اتخذها ذو القرنين للتمكين لدين الله ﷻ:

أ. الدستور العادل:

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك ساق الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عملهم بهذا المنهج الرباني، قال تعالى:

﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحَسَنَ ۗ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 87، 88].

وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عدله ورحمته، لأن الناس الذين قهرهم

وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعاً معاملة واحدة، فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح، فهل يستوون في المعاملة؟ ذو القرنين: أما الظالم الكافر وسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له، فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا، ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخرى.

إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذب مرتين، مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبر ومودة⁽¹⁾.

لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس هو التقوى والإيمان والعمل الصالح ودائماً يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب . المنهج التربوي للشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيم الحياة في الدنيا.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول أو حاكم أو قائد منهجاً أساسياً، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى⁽²⁾.

(1) مع قصص السابقين في القرآن للخالدي (2/ 330 . 331).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 142.

وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة واليسير، والعزاء الحسن عند الحاكم والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاء حسناً أو مكاناً كريماً وعوناً وتيسيراً، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة، عندئذ يجدون ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج، أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون ومقربون إلى الحاكم، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون مבוذون أو محاربون، فعندئذ، تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة فساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد⁽¹⁾.

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعات هدية للمحسن ليزداد في إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حد وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان⁽²⁾.

ج - الاهتمام بالعلوم المادية والمعنوية وتوظيفها في الخير:

قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً﴾ [الكهف: 84] إنه شخص مكن له رب السماوات والأرض الخالق المدبر المتصرف في شؤون الكون، رب العزة والجبروت

(1) في ظلال القرآن (4/ 922).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

مكن له في الأرض وآتاه من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض.

- مكن له في العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً.

- مكن له في سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهذيباً وتربية وانتظاماً.

- مكن له في أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر.

- مكن له في أسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنما الزراعة.

ومهما قيل ومهما تصور من أسباب التمكين الحسنة التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾⁽¹⁾، ويبقى للتصور مجال وللخيال سعة لاستشفاف صورة هذا التمكين وأشكاله، وذلك من خلال المؤكدات العدة التي وردت في الآية الكريمة⁽¹⁾.

ونلاحظ من خلال الآيات أن ذا القرنين وظف علوماً عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

- علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها، وسهولها،

(1) مباحث في التفسير الموضوعي د. مصطفى مسلم، ص: 304.

لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصص في هذا المجال⁽¹⁾.

- كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانيات على خير ما أتيج له: ﴿ءَأَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَوًّا إِذَا سَأَوْنِي بَيْنَ الصَّدَّيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَوًّا إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (96) [الكهف: 96].

أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فأتوه إياها، فأخذ يبني شيئاً فشيئاً حتى جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في العلو ثم قال للعمال: انفخوا بالكبير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين⁽²⁾. فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة، قال للذين يتولون أمر النحاس من الإذابة وغيرها: أتوني نحاساً مذاباً أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهي طريقة استخدمت حديثاً في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته⁽³⁾.

- كان واقعياً في قياسه للأمور وتدبيره لها فقد قدر حجم الخطر، وقدر ما يحتاج إليه من علاج، فلم يجعل السور من

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

(2) روح المعاني للألوسي (16/ 40).

(3) فتح القدير (3/ 313).

الحجارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يعود منهاراً لأدنى عارض، أو في أول هجوم، ولهذا باءت محاولات القوم المفسدين بالفشل عندما حاولوا التغلب على ما قهرهم به ذو القرنين : ﴿فَمَا أَصْطَلَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا أَصْطَلَعُوا لَكُمْ نَقَبًا﴾ (١٧) ﴿[الكهف: 97] ، أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملامسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخاتته⁽¹⁾ .

لقد كان ذو القرنين على علم بأخبار الغيب التي جاءت بها الشرائع، ومع ذلك لم يتخذ من الأقدار تكنة لتبرير القعود والهوان، فقد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله⁽²⁾ .

د - فقهه في إحياء الشعوب:

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحثك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته:

. الرحلة الأولى:

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس ووجد عندها قوماً، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا ثَكْرًا﴾ (٨٧) ﴿وَأَمَا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرٌ حَسَنٌ وَسَنَقُولُ لَهُمْ مِنْ أَمْرًا يُسْرًا﴾ [الكهف: 87-88] .

(1) فتح القدير للشوكاني (3/ 313).

(2) فقه النصر والتمكين للصلاحي، ص: 144.

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يده في حياته الأولى.

. الرحلة الثانية :

وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع من خلف الأفق، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة، إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي إلى أن المقصود بقوله تعالى: ﴿لَمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: 90]، هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور ولا يوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن⁽¹⁾.

ونظراً لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل⁽²⁾.

(1) القصص القرآني من سورة الكهف، ص: 87.

(2) مباحث في التفسير الموضوعي مصطفى مسلم، ص: 306.

. الرحلة الثالثة :

تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وكان المنطقة، ومن حيث الأعمال التي قام بها، فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين، بل قام بعمل عمراني هائل، أما الأرض فوعرة المسالك، وأما السكان . وكان وعورة الأرض قد أثرت في طبائعهم، وطريقة تخاطبهم مع غيرهم . ففي التفاهم والمخاطبة لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بني قومه : ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: 93] .

ونلاحظ من خلال السياق القرآني أن هؤلاء القوم اتصفوا بصفات منها:

- هم قوم متخلفون ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ، هذا إما معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلِقون على لغتهم فقط . وإما معناه: أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون، ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم .

- هم قوم ضعفاء: ولذلك عجزوا عن صدِّ هجمات يأجوج ومأجوج والوقوف في وجههم، ومنع أفسادهم .

هم قوم عاجزون عن الدفاع عن أرضهم، ومقاومة المعتدين

ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

- هم قوم اتكاليون كسالى: لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحوالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليها حقها، أما هم فمستعدون لدفع المال له⁽¹⁾. لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشعوب المستضعفة هو السعي الجاد لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة، فكان يدير العمل بروح الجماعة ويشترك بنفسه مع إشراك غيره، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح الحماسة والحيوية والتعاون المشترك⁽²⁾، قال تعالى: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ [الكهف: 95-96].

لقد كان ذو القرنين حريصاً على مصلحة الناس، ناصحاً لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك من تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم⁽³⁾، ومن نصحه وإخلاصه لهم، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سداً، أما هو فقد وعد بأن

(1) مع قصص السابقين للخالدي (2/ 338).

(2) الحاكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 627).

(3) أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي (3/ 243).

يجعل بينهم ردماً، والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجعون⁽¹⁾.

لقد عَفَ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط والعمل، والكسب، والسعي، فقال لهم: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ لَكُمْ رِزْقًا وَيُنصِرْكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الكهف: 95].

إن في هذه العبارة القرآنية معلماً بارزاً في تضافر الجهود، وتوحيد الطاقات، والقدرات والقوى.

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجيهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات، وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية ملأى بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة والأموال المهذرة والأوقات المبددة، والشباب الحيارى وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف⁽²⁾، ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

(1) روح المعاني (16 / 40).

(2) مع قصص السابقين (2 / 342).

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ بأجوج ومأجوج في الهجوم، ثم يهاجم ويهزمهم، ولكن الله ﷻ يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم، ولكن وظيفته منع وقوع الظلم.

ولم يأت ذو القرنين بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات، ويتدربوا على العمل الجاد المثمر الذي يبنون السد بأيديهم، وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفون عاطلين، وهذا يلفتنا إلى أن عطاء الله ﷻ، عطاء إمكانات، وعطاء ذاتي في النفس.. عطاء الإمكانيات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل، والعطاء الذاتي في النفس: هو القوة الذاتية داخلك التي تعطيك طاقة العمل، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس.. لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمّل بإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر.. وأن يعمل أعمالاً كثيرة⁽¹⁾.

إن ذا القرنين لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين، إنما استعان

(1) القصص القرآني في سورة الكهف محمد متولي الشعراوي، ص: 93.

بهؤلاء الضعفاء وطلب منهم أن يأتوا بالحديد، ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين، ثم قام بصهر الحديد، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة.

إذن فهو قوى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج، بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط، ليأخذوا الثقة في أنفسهم بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم ولتعلموا ما يعينهم ويحميهم، والإسلام ينهانا أن نعود الناس على الكسل أو نعطيهم أجراً بلا عمل، لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع، فالإنسان متى تقاضى أجراً بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبداً⁽¹⁾.

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض، فقوى المستضعفين وجعله قادراً على حماية أنفسهم من العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين بل نقلهم إلى ساحة العاملين.

فعندما تحرك القوم المستضعفون نحو العمل بقيادة ذي القرنين، وصلوا إلى هدفهم المنشود، وغايتهم المطلوبة⁽²⁾.

ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمّ بناء السد:

- نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به فلم يأخذه

(1) القصص القرآني في سورة الكهف محمد متولي الشعراوي، ص: 94.

(2) فقه النصر والتمكين، ص: 150.

البطر والغرور، ولم تسكره نشوة القوة والعلم، ولكنه ذكر الله فشكره، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه⁽¹⁾.

- ذكر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلمنا كيف يكون ذكر الله سبحانه، فإن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكر العبد ربه عند توفيقه في عمل، فيستشعر أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

- كان بناء السد رحمة من الله تعالى، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه، وتمكينه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، منع العدوان عنهم، فكان علمه رحمة من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

- كان القوم مهتدين بياجوج ومأجوج، معرضين لإفسادهم ولم يحممهم منهم إلا الله ببناء السد، فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً بإذن الله، فلو لم يتم عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية⁽²⁾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: 98].

- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾: وقبل أن يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته وقبل أن

(1) في ظلال القرآن (4 / 2293).

(2) مع قصص السابقين (2 / 350).

يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية، توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة أساسية وهي قوله : ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾ .

أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين مطلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه، فما يسيرون خطوة إلا بإذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالم بهم مطلع عليهم، خبير بهم ونقف لتساءل عن الحكمة عن ذكر حقيقة إحاطة الله بأخبار ذي القرنين وجيشه وعلمه بها أثناء حديثه عن فتوحاته؟ إن الحكمة التي قد تبدو لنا هي: حرص القرآن على ربط كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشئته وعلمه سبحانه حتى لا ينسى الناس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحداث وحتى لا يظنوا أن الناس يتحركون بها بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه، فهذا هو ذو القرنين قام بفتوحات عظيمة، في الجبهة الغربية ثم في الجبهة الشرقية وقام بإنجازات عظيمة في الجبهة الشمالية، لكن الله مطلع على أعماله، محيط بأخباره، عالم بإنجازاته وهو مقدر لها ومريد لها سبحانه⁽¹⁾.

إن قصة ذي القرنين تدل على وجوب الأخذ بالأسباب وبيان أن ذلك ضروري للنهوض الحضاري للأمم، وقد قدم القرآن الكريم ﴿ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أمودجاً متجسداً لربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج واعتبر ذلك مقدمة لا بد منها للنهوض والإنجاز الحضاري وبذلك لم يكتف القرآن بتأكيد موضوع السنن والأسباب نظرياً، لقد مكن الله له في الأرض فأعطاه سلطاناً وطيد الدعائم ويسر له أسباب الحكم والفتح وأسباب البناء والعمران، وأسباب السلطان والمتاع،

(1) مع قصص السابقين في القرآن (2/ 325).

وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه في هذه الحياة ﴿ثُمَّ أَنْبِئْ سَبِيًّا﴾.

إن قصة ذي القرنين من قصص القرآن التي يتمثل بها من الدلالة على القدرة الفائقة لأصحابها ومدى ما كانوا عليه من قوة وتمكين، ولكن بواسطة ما سنّه الله من أسباب في هذا الكون، ووسائل تؤدي إلى غاياتها المراد منها، لتمثل بذلك أنموذجاً لكل مسلم يريد أن يسلك في هذه الحياة على هدي من الفهم لسنن الله في الخلق، ولتتقين كل أحد أن التمكين في الأرض والسعادة في الآخرة، إنما يتحصل بأسباب ووسائل سواء المادي منها والمعنوي، من ما تحقق به ذو القرنين⁽¹⁾.

هـ - أخلاقه القيادية:

إن شخصية ذي القرنين تميزت بأخلاق رفيعة ساعدته على تحقيق رسالته الدعوية والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

- **الصبر:** كان جلدأ صابراً على مشاق الرحلات، فمثلاً تلك الحملات التي كان يقوم بها تحتاج إلى جهود جبارة في التنظيم والنقل والتحرك والتأمين، فالأعمال التي كان يعملها تحتاج إلى جيوش ضخمة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك⁽²⁾.

- **مهابته:** كانت له مهابة ونجابة يستشعرها من يراه لأول مرة،

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد. مجدي محمد عاشور، ص: 166.

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

ولكنها ليست مهابة الملوك الظلمة الجبارين فعندما بلغ بين السدين ووجد القوم المستضعفين، استأنسوا به، ووجدوا فيه مخلصاً من الظلم والقهر الواقع عليهم فبادروه بسؤال المعونة فمن الذي أدرأهم بأنه لن يكون مفسداً مثل المفسدين أو الظالمين، ومعه من القوة والعدة ما ليس لمثلهم⁽¹⁾.

- الشجاعة: كان قوي القلب جسوراً غير هيباب من التبعات الضخمة والمسؤوليات العظيمة إذا كان في ذلك مرضاة الله سبحانه، فإن ما طلب من إقامة السد كان عملاً عظيماً في ذاته، حيث أن القوم المفسدين كان من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر⁽²⁾.

- التوازن في شخصيته: فلم تؤثر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمته، ولا حسمه من رفقه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها. وقد سخرت له. كافية لإثناؤه عن تواضعه وطهارته وعفته.

- كثير الشكر: لأنه كان صاحب قلب حي موصول بالله تعالى، فلم تسكره نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعدما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه⁽³⁾ سبحانه وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾.

- العفة: كان مرتفعاً عن مال لا يحتاجه ومتاع لا ينفعه، فإن القوم المستضعفين لما شكوا إليه فساد المفسدين، عرضوا عليه

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 624).

(2) المصدر نفسه (2/ 624).

(3) المصدر نفسه (2/ 627).

الخراج، فأجابهم بعبء وديانة وصلاح: إن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه، وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه⁽¹⁾.

إن التوازن المدهش والخلاب في شخصية ذي القرنين سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار⁽²⁾. وكذلك أكرمه الله بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها⁽³⁾، وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطي لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققها حاكم بحوله وقوته وذكائه مهما بلغ، إلا أن يكون مؤيداً من الله، ذلك التأيد الذي ينصر الله به عباده المؤمنين، ويدل على هذه العناية أيضاً ضمير العظمة في قوله: ﴿وَأَيُّنُّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيًّا﴾، أي: أمدته بكل ما أرادته من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامها وعرفه السنة الأقوام الذين كان يغزوهم فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم⁽⁴⁾.

(1) الحكم والتحاكم (2/ 625).

(2) روح المعاني (16/ 30).

(3) البحر المحيط (6/ 159).

(4) روح المعاني (16/ 31).

لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سبباً، وينصرف ذهن السامع أو القارئ إلى وجوه التمكين له في الأرض، وأسبابه من العلوم والمعرفة واستقراء سنن الأمم والشعوب صعوداً وهبوطاً، وفي سياسة النفوس أفراداً وجماعات تهديباً وتربية وانتظاماً، وأعطاه من أسباب القوة من الأسلحة والجيوش وأسباب القوة والمنعة والظفر، وأسباب العمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة، وقيل: مهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض⁽¹⁾. يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكِّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

لقد كانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى واستعداده لليوم الآخر، ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية.

لقد بذل ذو القرنين ما في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبادة الله فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العقاب أو الثواب، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة في الأرض شرقاً وغرباً، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران⁽²⁾.

الأسباب التي اتخذها داود عليه السلام للتمكين لدين الله:

قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ

(1) مباحث في التفسير الموضوعي، ص: 304، مصطفى مسلم.

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 623).

وَأَتَتْهُ اللَّهُ الْمَلِكُ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٥١﴾ [البقرة: 251].

أكرم الله تعالى داود بقتل جالوت، وبين القرآن الكريم أن داود
عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت، وممن نجحوا في الامتحان
العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من
سقط ونجح من نجح فقد رفع داود عليه السلام راية النصر، وشرع في
إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت، وكان إذ ذاك فتى،
وتم له الظفر، فالتقت على محبته القلوب، وتأكدت له أوامر
الإخلاص، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل، يكتون
له في نفوسهم الاحترام والمحبة والتوقير، ومنذ ذلك الحين بدأ
نجمه يصعد في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر، ويجيئه النصر يتبعه
النصر، حتى ولي الملك أخيراً وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح
الحكم في زمنة في عدله وحكمه، وكان أواباً رجاعاً إلى ربه بالطاعة
والعبادة، والذكر والاستغفار، لقد كان منهج التغيير في زمن
داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر، والإيمان
والكفر، والهدى والضلال، وبالفعل تم دمع الباطل وإضعافه ووصل
بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم.

- قال تعالى: ﴿أَصْبَرَ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَذَكَرَ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ
أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِنشِرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْسُورَةً كُلٌّ
لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَسَدَدْنَا مُلْكَهُمْ وَعَآيِنَتُهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ لِلطَّآئِبِ ﴿ص: 17-﴾

[20].

إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على

صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المسلم كمال السعادة في الدنيا والآخرة، ومن أهم هذه الصفات:

- الصبر: فقد أمر الله تعالى نبينا محمد ﷺ على جلالته قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله.

- العبودية: وقد وصفه ربه بقوله: ﴿عَبِيدًا﴾ وعبر عن نفسه بصيغة الجمع للتعظيم والوصف بالعبودية لله غاية التشريف كوصف محمد بها ليلة المعراج ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1].

وكان النبي ﷺ إذا ذكر داود ﷺ تحدث عنه بين فضله واجتهاده في العبادة: إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ﷺ: كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً⁽¹⁾.

- القوة على أداء الطاعة: والاحتراز عن المعاصي في قوله: ﴿ذَا الْأَيْدِي﴾ [ص: 17].

- والرجوع إلى الله بالطاعة في أموره كلها: في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوْابٌ﴾. وصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أواب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح.

- تسبيح الجبال والطيور معه: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لِّأَنَّ أَوَّابٌ ﴿ص: 18 - 19﴾ أي أنه تعالى سخر الجبال تسبيح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار، كما قال ﷺ: ﴿يَجِبَالٌ أَوَّابٌ مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ [سبأ: 10].

(1) مسلم، ك الصيام، باب النهي عن صوم الدهر رقم 189.

قال ابن كثير: وكذلك الطير تسبح بتسيحها، وترجع بترجيحه إذا مر به الطير، وهو سابح في الهواء، فسمعه، وهو يترنم بقراءة الزبور، لا يستطيع الذهاب، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات، وترجع معه، وتسبح تبعاً له⁽¹⁾.

- قوة الملك : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ [ص: 20] أي: قوينا ملكه بالجند أو الحرس، وجعلنا له ملكاً كاملاً في جميع ما يحتاج إليه الملوك.

- الحكمة: ﴿وَأَيَّبْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ [ص: 20] أي: أعطيناه الفهم والعقل والفتنة، والعلم، والعدل، وإتقان العمل، والحكم بالصواب.

- حسن الفصل في الخصومات: ﴿وَقَصَلْنَا لِنُظَابٍ﴾ [ص: 20] أي: وألهمنا حسن الفصل في القضاء بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإيجاز البيان، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل⁽²⁾.

إن داود عليه السلام شد ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: 18] .

فوهبه الله هبة عظمتي ذكرها في كتابه ﷻ : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَيَّبْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَقَصَلْنَا لِنُظَابٍ﴾ [ص: 20] ، الذي جعلنا له ملكاً

(1) تفسير ابن كثير (4/ 29).

(2) تفسير المنير لوهبة الزحيلي (23/ 183-185).

كاملاً من جميع الملوك العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه، وكثافة حراسه الذين قيل: إنهم كانوا ألوفاً كثيرة يتناوبون في حراسته ولم ينكسر له جيش في معركة أبداً بعون الله ونصره⁽¹⁾.

أ. استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26].

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكماً بين الناس في الأرض، فله الحكم والسلطة، وعليهم السمع والطاعة ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليماً لغيره من الناس:

- ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ أي: فاقض بين الناس بالعدل، الذي قامت به السموات والأرض وهذه أولى وأهم قواعد الحكم.

- ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى﴾ أي: لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا، فإن اتباع الهوى مزقة ومدعاة إلى النار، لذا قال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26] أي: إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال، والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: 26] أي: إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل لهم عقاب شديد يوم القيامة، والحساب الأخروي بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق

(1) تفسير القرطبي (15/ 162).

لكل إنسان، ويسبب تركهم العمل لذلك اليوم، ومنه القضاء بالعدل⁽¹⁾.

ب. هبة من الله مباركة وفتح وإلهام:

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبي الملك سليمان عليه السلام، وأثنى الله عليه في كتابه بكونه أواب إلى الله. عليه السلام كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله عليه السلام في أكثر الأوقات، ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِداوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 30].

لقد أكرم الله تعالى سليمان عليه السلام بالملك والنبوة وأعطاه الفهم الثاقب، والرأي السديد، ورجاحة العقل ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: 78-79].

ج. ابتكار في صناعة الأسلحة:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: 80]، كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها، وتعلمها الناس منه، وإنما كانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة.

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 126.

وذلك يقتضي الشكر، لذا قال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: 80] أي: على تيسير نعمة الدروع لكم، وأن تطيعوا رسول الله فيما أمر الله به والمراد: اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة، وهذا دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسباب، فالسبب سنة الله في خلقه، وهي شهادة للعمال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شرف، واتخاذ الحرفة كرامة وهذه الآية فيها إشارة لحث أهل الإيمان على العمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن، وشريعة الدين، قال تعالى: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِرَ فِي السَّرِّ وَعَمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾﴾ [سبأ: 10-11].

وكانت هذه هبة الله فوق الملك والسلطان، مع النبوة والاستخلاص إن الله تعالى أنعم على عبده داود بتسييل الحديد له أو تعليمه كيف يسهل الحديد الذي هو مادة الإعمار والبناء والتصنيع، ولا شك في خطورة مادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش (1).

وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُ وَرُسُلَهُ بِالْعَلِيِّ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد: 25].

سورة الحديد؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 129.

من التحضير والإبداع والبناء التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكياته في قلب العالم، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده، وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد «البأس الشديد» متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري و«المنافع» التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في كافة مجالات نشاطه وبنائه «السلمي»؟ وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن في مسائل السلم والحرب، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلماً وحرماً؟

إن الدولة المعاصرة التي تمتلك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحها لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل... وتستطيع أيضاً أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها⁽¹⁾.

إن الله ﷻ منح الحديد لداود عليه السلام وعلمه كيف يلينه، لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله، ولا شك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي... الخ

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقاً وارتباطاً صميماً بين آية الحديد، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم، وإقامة

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص: 221. 222 عماد الدين خليل.

الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته البأس، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم ﴿اللَّهُ مَنْ يَصْرُهُ وَرَسُولُهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: 25].

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية الإسلام والتقدم به وتحقيق النصر للمؤمنين وإقامة شرع الله في مناحي الحياة.

إن قول الله تعالى: ﴿وَالنَّارُ لَهَا الْحَدِيدُ﴾ [سَبَأ: 10] فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإنسانية في طاعة الله.

4 - الأسباب التي اتخذها سليمان عليه السلام للتمكين لدين الله:

تسلم سليمان عليه السلام قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى، لقد أوتي سليمان عليه السلام الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتي، ولكنه أعطي قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم، هياً لأن يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ، لقد أعطي النبوة، ومنح العلم وأوتي الحكمة، وذلك مثلما أعطي أبوه من قبل ⁽¹⁾.

أ. بداية التمكين:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ أَلْبَسَ فَضَلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأْتِيهَا

(1) فقه النصر والتمكين، ص: 130.

النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُمِينُ ﴿[النمل: 15-16].

بدأ التمكين بتلك الإشارة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلِمًا﴾، وقبل أن تنتهي الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه، لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار، وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه، فلا يكون العلم مُبعداً لصاحبه عن الله، ولا منسياً له إياه، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها، يفرد سليمان بالحديث: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُمِينُ﴾ [النمل: 16].

ب . فقه سليمان ﷺ في إدارة الدولة :

إن القصص القرآني في سيرة سليمان أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين، وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية :

- دوام المباشرة لأحوال الرعية، وتفقد أمورها، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها، فهذا كان حال سليمان ﷺ ﴿وَتَقَدَّ الطَّيْرَ﴾ [النمل: 20] وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك، والاهتمام بكل جزء فيه، والرعاية بكل واحدة

فيها وخاصة الضعفاء⁽¹⁾.

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة. إن سليمان كان مهتماً بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيئاً في أحوالهم، فسليمان عليه السلام لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال ﴿مَالِكٌ لَا أَرَى الْهُدُودَ﴾ [النمل: 20] يعني: «أهو غائب؟» كأنه يسأل عن صحة ما لاح له⁽²⁾، ثم قال: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [النمل: 20]، سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة، إذا لم يكن الغياب بعذر⁽³⁾.

- لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء، ويحسن للمحسن ولا بد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم وهذا عين العدالة، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ، بل جعله متوقفاً على حجم الخطأ ﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: 21].

وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب، وعلى الترفي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل⁽⁴⁾.

(1) تفسير القرطبي (13 / 177).

(2) تفسير الرازي (24 / 189).

(3) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 593).

(4) المصدر نفسه (2 / 593).

- الاهتمام بالأجهزة الأمنية، لا بد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالأخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين، وعقيدة التوحيد، ونشر المبادئ السامية، والأهداف النبيلة، والمثل العليا، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهزة الإعلامية والوسائل التربوية، وأن تهيب النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام كما قال القرطبي - رحمه الله: فإنما صار صدق الهدهد عذراً له، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبيب إليه الجهاد⁽¹⁾

- الاهتمام بنصر دعوة التوحيد، ولا بد للقيادة في الدولة المسلمة أن تهتم بنصر دعوة التوحيد، وبذل الوسع في تبليغها لكل مكلف فإن سليمان عليه السلام لما استمع إلى خبر القوم المشركين، شمّر عن ساعد الجد في إيصال البلاغ إليهم، وبدأ معهم بالحجة والبيان. قال تعالى: ﴿أَذْهَبَ بِكُنُوبِهِمْ هَذَا فَأَلْفَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظَرَ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [الثل: 28].

قال القرطبي رحمته الله: في هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليغهم الدعوة ودعائهم إلى الإسلام، وقد كتب النبي صلى الله عليه وآله إلى كسرى وقيصر وإلى كل جبار⁽²⁾.

ولقد كان كتاب سليمان عليه السلام لملكة سبأ يبدأ بالرحمة وتتخلله الكرامة، وآخره الدعوة إلى الاستجابة لله والاستسلام له سبحانه ﴿إِنَّهُ

(1) تفسير القرطبي (13 / 189).

(2) المصدر نفسه (13 / 190).

مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَتُوفِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
[النمل: 30-31].

- الترفع على حطام الدنيا: فملكة سببا عندما عملت الحيلة لاختبار سليمان عليه السلام، تفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بها حبه للدين، فأظهر عدم الاكتراث بهذا المال، وأعلم من جاؤوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السعادة القصوى وآتاه من الدنيا مالا مزيد عليه، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية، وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سيفرح بها، أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف⁽¹⁾، قال تعالى: ﴿أَتَمِيدُونَ بِمَالِ فَمَا آتَيْنَاهُ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ فَرِحُونَ﴾ [النمل: 36].

- المقدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب للمكان المناسب، وعدم التردد في القرار الصعب للتغلب على الحال الأصعب، فعندما وجد سليمان عليه السلام أن القوم ما زالوا على الشرك، بل يريدون استمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية: ﴿أَتَجْعَلُ إِلَهُكُمْ فَلَنَأْبِيئَهُمْ بِمُجُودٍ إِلَّا قَبْلَ لَكُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَدْلَةً وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ [النمل: 37].

ولا مانع من ركوب الشدة مع المعاند، واستعمال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعاند البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سبباً في إسلام ملكة سببا وانقيادها وجنودها لسليمان، ولا مانع من استعمال الذكاء والعقل

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 598).

النير، ودقة التدبير، في استجلاب قلوب المدعويين إلى الدين واستخدام نعم الله في دلالة الخلق على الله ومخاطبة الناس بالكيفية التي تستهوي قلوب عوامهم وتجلب احترام خواصهم، فسلیمان لما بلغه خبر مجيء ملكة سبا في جمع من حاشيتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى أن عرشها الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثيف يسبقها إليه⁽¹⁾.

- الاستفادة من المهارات والمواهب: وعلى الدولة المسلمة أن تستفيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان عليه السلام كان فيها من الإنس والجن وغيرهم ما كان يمكن أن يؤدي مهمة الهدهد، ولكن سليمان عليه السلام اختاره مع ضعفه وصغره لتأدية هذه المهمة فتخصيصه عليه السلام إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقوياء على التصرف والتعرف، لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة⁽²⁾.

ج - أبرز صفات سليمان عليه السلام كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم ممكن له في الأرض وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى.

- العزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (9/ 193).

(2) تفسير روح المعاني (9/ 193).

تقصيراً، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل ﴿لَا عَذِيبَةَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَا أَذِيبَتْهُ﴾ [النمل: 21] فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب، حتى لا يكون غيابه. إن لم يؤخذ بالحزم. سابقة سيئة لبقية الجند⁽¹⁾.

- التريث والتأني قبل الحكم، فلعل للغائب عذراً أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها: ﴿أَوْ لِيَأْتِنِي يُسْأَلُنِي مِثْلَ مِثْلٍ﴾ [النمل: 21] أي: بحجة تبين عذره في غيبته⁽²⁾. وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة.

- سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، على الرغم من أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ، وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ﴾ ٧٢ ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ ٧٣ ﴿وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّيْءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ٧٤ ﴿أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي

(1) في ظلال القرآن (5 / 2638).

(2) تفسير القرطبي (13 / 180).

يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿[النمل: 22-26]﴾، كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام.

- قبول الاعتذار ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذه وانتقل إلى تحري الخير.

قال القرطبي رحمته الله: هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدراً العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعدارهم، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ⁽¹⁾.

- التروي في تصديق الخبر، فهذا الذي حكاه الهدهد، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجروء على اختلاق هذه القصة، الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار، ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب، بل قال ﴿سَنَنْظُرُ﴾ [النمل: 27] وهو من النظر، أو التأمل والتحري ⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: 27]، يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد ⁽³⁾.

- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم،

(1) تفسير القرطبي (13 / 184).

(2) تفسير الرازي (24 / 193).

(3) تفسير ابن كثير (3 / 349).

وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة، فلما وجد سليمان طلبه مجاباً، وأمره مطاع سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين : ﴿ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ ﴾ [النمل: 40] أي: رأى العرش ثابتاً عنده قال: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ﴾ [النمل: 40] أي: هذا النصر والتمكين من فضل ربي ليختبرني أشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه (1).

- التواضع وهو في قمة المجد والتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل: إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعاً لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطيور مر على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض أبصر نملة، فأشخص النظر صوابها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول تفهم أمرها. لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحِطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَتَّبِعُونَ ﴾ [النمل: 18]. نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم، قال القرطبي رحمته الله: التفاتة مؤمن: أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون

(1) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2/ 600).

نملة، فما فوقها إلا بالأا يشعروا⁽¹⁾.

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعاً وألواناً من الحيوان والطيور والهوام.

لقد سمع كلامها، وتفهم شكواها، فتبسم من قولها، فرق قلبه الكبير، رفقاً لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها وإيصال العدل إليها، وسُرَّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدماً، بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور⁽²⁾.

﴿فَبَسَّرَ صَاحِبًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ [النمل: 19].

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه . في جنب الله . في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه ولهذا قال: ﴿وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19] .

ثانياً: الأسباب والتوكل:

التوكل على الله سبحانه . وتعالى . لا يمنع من الأخذ بالأسباب فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشئ النتائج فيتوكل

(1) تفسير القرطبي (13 / 170).

(2) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (2 / 589).

عليها⁽¹⁾، فالتوكل: هو قطع النظر في الأسباب بعد تهيئة الأسباب، كما قال ﷺ: «اعقلها وتوكل»⁽²⁾.

ففي جانب الأسباب يقول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوا جِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71].

- وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ ءَعَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: 60].

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10].

وفي جانب التوكل، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122].

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].

- وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

ولقد أرشدنا النبي ﷺ في أحاديث كثيرة إلى ضرورة الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، كما نبه ﷺ على عدم تعارضها، عن عمر بن الخطاب ؓ عن النبي ﷺ قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماساً، وتعود بطاناً»⁽³⁾.

(1) التمكنين للأمة الإسلامية، ص: 252.

(2) صحيح ابن حبان (2/ 510).

(3) سنن الترمذي (4/ 573) رقم 2344 حسن صحيح.

في هذا الحديث الشريف حث على التوكل مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والروح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها⁽¹⁾.

إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السماوات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية⁽²⁾.

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها، وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين:

- الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها ورجاؤها وخوفها، فهذا شرك يرق ويغلظ وبين ذلك.

- ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا أيضاً قد يكون كفراً وظلماً وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه، وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لا تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب إتيان ما لا يرى النجاة والفرج والوصول إلا بها، ويتوكل على الله

(1) التمكين للأمة الإسلامية، ص: 252.

(2) مدارك السالكين لابن القيم (2 / 130).

توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحاً ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصاً واجتهاداً، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريداً للتوكل واعتماداً على الله وحده⁽¹⁾.

وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح، حيث يقول: «أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»⁽²⁾.

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان:

- تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها.

- وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية⁽³⁾.

1 - القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين:

إن القول بالتنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب جهل بالدين، وهذا من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله تعالى خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسباباً ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره

(1) مدارك السالكين لابن القيم (3 / 501).

(2) مسلم، ك القدر، باب الأمر بالقوة (4 / 2052) رقم 2664.

(3) في ظلال القرآن (2 / 919).

الله به من الأسباب يحصل مطلوبه، وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسباباً لها فهو غلط⁽¹⁾.

2 - التوازن بين مقامي التوكل والأخذ بالأسباب:

الأصل أن يستعمل العبد الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده وأذن فيها وهو يعتقد أن المسبب هو الله ﷻ، وما يصل إليه من المنفعة عند استعمالها بتقدير الله ﷻ، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة مع استعماله السبب فتكون ثقته بالله واعتماده عليه في إيصال تلك المنفعة إليه مع وجود السبب⁽²⁾.

وبالتتبع لما قاله العلماء في التوازن بين المقامين نجد أن جمهورهم يقررون أن التوكل يحصل بأن يثق المؤمن بوعد الله، ويوقن بأن قضاءه واقع ولا يترك اتباع السنة في ابتغاء الرزق مما لا بد له منه من مطعم ومشرب وتحرز من عدو بإعداد السلاح وإغلاق الباب ونحو ذلك، ومع ذلك فلا يطمئن إلى الأسباب بقلبه، بل يعتقد أنها لا تجلب بذاتها نفعاً ولا تدفع ضرراً، بل السبب والمسبب فعل الله تعالى والكل بمشيئته، فإذا وقع من المرء ركون إلى سبب قدح في توكله⁽³⁾، وفي القصص القرآني ما يجلي هذا التوازن أيما تجلية، ويبين كيف مفهوم هذين المقامين وتطبيقهما على أرض الواقع وعلى الوجه الذي تقتضيه العقيدة الصحيحة مثل:

أ - قصة يعقوب عليه السلام مع أبنائه عند وصيته لهم قبل دخولهم

(1) فتاوى ابن تيمية (8 / 529 ، 530).

(2) شعب الإيمان للبيهقي (2 / 79).

(3) السنن الإلهية، د. مجدي محمد عاشور، ص: 215.

مصر لجلب ما يحتاجونه من طعام و مواد غذائية حين أصاب بلدهم الجذب والقحط، فقد وضاهم: قال تعالى: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدَخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَلْحَمْتُمْ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٧٧﴾ [يُوسُف: 67].

فيعقوب عليه السلام ضرب لنا المثل في كيفية الأخذ بالأسباب في نطاق التوكل على الله، إذ في قوله: ﴿لَأَتَدَخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يُوسُف: 67] تدبير وتشبث بالأسباب العادية التي لا تؤثر إلا بإذن الله تعالى، ولكنه استدرك ذلك مبيناً لهم أن الأخذ بالأسباب هنا ليس هو بمدافعة للقدر، بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه⁽¹⁾.

فقال: ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يُوسُف: 67] أي: لا يكون ما أمرتكم به مغنياً غناءً مبتدئاً من عند الله، بل هو الأدب والوقوف عندما أمر الله، فإن صادق ما قدره فقد حصل فائدتان، وإن خالف ما قدره حصلت فائدة امتثال أوامره واقتناع النفس بعدم التفريط⁽²⁾.

وقد أراد يعقوب عليه السلام بهذا أن يعلم أبناءه الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة، تأدباً مع واضح الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلياً أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون

(1) روح المعاني للألوسي (13 / 19).

(2) تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (13 / 12).

ذلك إلا بالسعي لها، وهذا سر مسألة القدر كما أشار إليها قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»⁽¹⁾.

وبهذا يثبت أن الأسباب لا بد لها من سباج قوي من التوكل، تدور في فلكه ولا تخرج عن حقيقته، ليكون ذلك أدعى لتحقيق المراد، وأجدر لامثال أمر الله، وذلك لأن الأسباب العادية لما لم تكن غير مستقلة في تأثيرها ولا غنية في ذاتها مفتقرة إلى ما وراءها. كان من الواجب على من يتوسل إليها في مقاصده الحيوية أن يتوكل مع التوسل إليها على سبب وراءها، ليتم لها التأثير، ويكون ذلك منه جرياً في سبيل الرشد والصواب ويكون ذلك بالتوكل على الله سبحانه في الأمور كلها، فإن الله لا إله إلا هو، رب كل شيء، وهذا هو الله سبحانه وحده لا شريك له، فإن الله لا إله إلا هو رب كل شيء، وهذا هو المستفاد من الحصر الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: 12].

لقد مدح الله تعالى هنا يعقوب عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 68]، لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: ﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِثْرُ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 67]، فالآية: فأثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين⁽²⁾.

(1) فتح الباري (8/ 709)، مسلم (4/ 2040).

(2) تفسير الثعالبي (2/ 247)، السنن الإلهية، ص: 217 د. مجدي محمد عاشور.

ب - قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: وهي - كما وردت في القرآن الكريم - تبين لنا بوضوح بالغ أنه لا اختلاف ولا تباين بين مقامي الأخذ بالأسباب والتوكل، إذ كلُّ له ملابساته وظروفه التي ترجع مقاماً على آخر في بعض الأوقات والأحوال.

كانت مريم في بداية حياتها يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال تعالى: ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37] ، فلما ولدت أمرت بهز الجذع، قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارحتها عن التّصب، فلما ولدت عيسى السَّلَامُ وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحدِيثه وأمره، وكلها إلى كسبها وردّها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده⁽¹⁾.

ج - السنة النبوية: فعلى مستوى السنة الفعلية ثبت أنه صَلَّى ظاهر في الحرب بين درعين، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة في الشعب، وخذق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة، وهاجر هو وتعاطى أسباب الأكل والشرب وادّخر لأهله قوتهم، ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك، ومع كل ذلك لا يظن برسول الله صَلَّى أنه مال إلى شيء من الأسباب غفلة مقدار طرفة عين⁽²⁾.

والمثال النبوي الفعلي لهذا التوازن - على وجه التفصيل - حادث الهجرة الذي اصطحب فيه أبو بكر الصديق صَلَّى فقد استوفيا

(1) تفسير القرطبي (11/ 96.95)، السنن الإلهية د. مجدي، ص: 217.

(2) فتح الباري لابن حجر (10/ 212).

هما الاثنان في هذه الهجرة الأسباب المتاحة جميعها، لم يغفلا واحداً منها⁽¹⁾.

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط فيها، ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدّد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً، وأن التخطيط جزء من السنة النبوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طوّل به المسلم، وأن الذي يميلون إلى العفوية، بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة، أمثال هؤلاء مخطؤون، ويجنون على أنفسهم، وعلى المسلمين⁽²⁾.

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ، شرع النبي ﷺ في التنفيذ، نلاحظ الآتي:

- وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتى نجحت، برغم ما كان يكتنفها من صعاب، وعقبات، وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروساً دراسة وافية، فمثلاً:

- جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر، في وقت شدة الحرّ الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقت، لماذا؟ حتى لا يراه أحد.

- إخفاء شخصيته ﷺ في أثناء مجيئه للصدّيق وجاء إلى بيت

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 217.

(2) الأساس في السنة، سعيد حوي (1/ 357).

الصّدِّيق مثلاً، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرف على معالم الوجه المتلثم⁽¹⁾.

- أمر ﷺ أبا بكر أن يُخرج من عنده، ولما تكلم لم يبين إلا الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

- كان الخروج ليلاً، ومن باب خلفي في بيت أبي بكر⁽²⁾.

- بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة في ذلك بخبير يعرف مسالك البادية، ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشركاً، ما دام على خُلُق ورزانه، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يحجم عن الاستعانة بالخبرات مهما يكن مصدرها⁽³⁾.

- انتقاء شخصيات لتقوم بالمعاونة في شؤون الهجرة، ويلاحظ أن هذه الشخصيات كلها تترايط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعل هؤلاء الأفراد، وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

- وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيام به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائه والنهوض بتبعاته.

(1) في السيرة النبوية. قراءة لجوانب الحذر والحماية، ص: 141، د. إبراهيم علي أحمد.

(2) من معين السيرة للشامي، ص: 147.

(3) الهجرة في القرآن الكريم أحزمي سامعون، ص: 361.

- فكرة نوم علي بن أبي طالب عليه السلام مكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فكرة ناجحة، قد ضللت القوم، وخدعتهم وصرفتهم عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حتى خرج في جنح الليل تحرسه عناية الله، وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلقة بعد اليقظة، بمضجع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فما كانوا يشكّون في أنه ما يزال نائماً مُسجى في برده، في حين النائم هو علي بن أبي طالب عليه السلام.

- وقد كان عمل أبطال هذه الرحلة على النحو التالي:

- علي عليه السلام: ينام في فراش الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يخدع القوم، ويُسلم الودائع، ويلحق بالرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك.

- عبد الله بن أبي بكر: رجل المخابرات الصادق، وكاشف تحركات العدو.

- أسماء ذات النطاقين: حاملة التموين من مكة إلى الغار، وسط جنود المشركين، بحثاً عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم ليقتلوه.

- عامر بن فهيرة: الرّاعي البسيط الذي قدّم اللحم واللبن إلى صاحبي الغار، وبدد آثار أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كي لا يتفرسها القوم، لقد كان هذا الرّاعي يقوم بدور الإمداد، والتموين، والتعمية.

- عبد الله بن أريقط: دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى يثرب، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع لكل شخص من أشخاص

الهجرة في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية بديعة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ الرسول ﷺ بالأسباب المعقولة، أخذاً قوياً حسب استطاعته وقدرته، ومن ثم باتت عناية الله متوقعة⁽¹⁾.

إن اتخاذ الأسباب أمر ضروري وواجب، ولكن لا يعني ذلك دائماً حصول النتيجة، ذلك لأن هذا أمر يتعلق بأمر الله ومشيئته، ومن هنا كان التوكل أمراً ضرورياً وهو من باب استكمال اتخاذ الأسباب.

إن رسول الله ﷺ أعد كل الأسباب، واتخذ كل الوسائل، ولكنه في الوقت نفسه مع الله، يدعو ويستنصره أن يكمل سعيه بالنجاح، وهنا يُستجاب الدعاء، وينصرف القوم بعد أن وقفوا على باب الغار وترسيخ فرس سراقه في الأرض ويكمل العمل بالنجاح⁽²⁾.

وأما على مستوى السنة القولية . في هذا الصدد . نجد أن النبي ﷺ قال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽³⁾، في الوقت الذي ثبت فيه أن النبي ﷺ أكل مع المجذوم⁽⁴⁾. وظاهر الحديثين يدل على التنافي بين التوكل والأخذ بالأسباب، إلا أنه عند التحقيق نجد أنه ﷺ أكل مع المجذوم ليبين أن الله هو الذي يمرض ويشفي، وأنه لا شيء يعدي بطبعه، نفياً لما كانت الجاهلية تعتقده من أن

(1) أضواء على الهجرة، توفيق محمد، ص: 397.393.

(2) السيرة النبوية للصلاحي (1 / 480).

(3) فتح الباري على صحيح البخاري (10 / 158).

(4) سنن الترمذي (4 / 266) صحيح الإسناد.

الأمراض تعدي بطبعها من إضافة إلى الله، فأبطل النبي ﷺ إعتقادهم ذلك، في حين نهى النبي ﷺ عن الاقتراب من المجذوم، ليبين أن هذا من الأسباب التي أجرى الله تعالى العادة بأنها تقتضي إلى مسبباتها، ففي نهيه إثبات الأسباب، وفي فعله إشارة إلى أنها لا تستقل، بل الله هو الذي إن شاء سلبها قواها، فلا تؤثر شيئاً، وإن شاء أبقاها فأثرت، وفي ذلك فسحة لمقام التوكل⁽¹⁾ على الله، وهذا يبين أن لكل حالة مقامها التي شرعها الله ﷻ لها. ومن ذلك ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بقوم فقال: من أنتم؟ قالوا: المتوكلون. قال: أنتم المتوكلون، إنما التوكل رجل ألقى حبة في بطن الأرض وتوكل على ربه ﷻ⁽²⁾.

ثالثاً: الأسباب والمسببات:

إن الله تعالى قدر الأشياء بأسبابها، فالقدر يتعلق تعلقاً واحداً بالسبب وبالمسبب معاً، أي أن هذا المسبب سيقع بهذا السبب، ومن الأدلة على ذلك قول النبي ﷺ: «إن الله خلق للجنة أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلق للنار أهلاً خلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وهم بعمل أهل النار يعملون»⁽³⁾.

وفي المضممار نفسه أخبر النبي ﷺ صحابته بأن الله كتب المقادير، فقالوا: أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ فقال ﷺ:

(1) فتح الباري (10 / 160 - 161).

(2) شعب الإيمان (2 / 81)، السنن د. مجدي، ص: 219.

(3) مسلم (4 / 2050)، السنن د. مجدي، ص: 218.

«من كان من أهل السعادة فسيستبر إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاوة فسيستبر إلى عمل أهل الشقاوة اعملوا فكل ميسر، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٠﴾﴾ [الليل: 5-10].

وفي هذا الحديث النهي عن ترك العمل والانتكال على ما سبق به القدر، بل تجب الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكل ميسر لما خلق له لا يقدر على غيره⁽¹⁾.

فالنبي ﷺ أرشد الأمة في هذا الحديث في شأن القدر إلى أمرين هما سبب السعادة: الإيمان بالأقدار، إذ هو نظام التوحيد، والإتيان بالأسباب التي توصل إلى غيره وتحجز عن شره، وذلك نظام الشرع، فأرشدهم إلى نظام التوحيد والأمر⁽²⁾.

فلا منافاة بين الأخذ بالأسباب والإيمان بالقضاء والقدر، فمن القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء، واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان، فكذلك الدعاء والبلاء يتعالجان، وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح، وقد قال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: 71]، وأن لا يسقي الأرض بعد بث البذور، فيقال: إن سبق القضاء

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (16 / 196).

(2) شفاء العليل لابن القيم، ص: 53.

بالنبات نبت البذر، وإن لم يسبق لم ينبت، بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كلمح البصر أو هو أقرب، وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر، والذي قدر الخير قدره بسببه، والذي قدر الشر قدر لدفعه سبباً، فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته⁽¹⁾.

ولبيان ارتباط الأخذ بالأسباب وتناسقه مع الإيمان والقدر وفق الحكمة الإلهية يقول الرازي عن تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا حُدُوداً حِذْرُكُمْ﴾ [النساء: 71] أنه لما كان الكل لقدر كان الأمر بالحذر أيضاً داخلاً في القدر، فكان قول القائل: أي فائدة من الحذر كلاماً متناقضاً، لأنه لما كان هذا الحذر مقدرأ، فأى فائدة في هذا السؤال الطاعن في الحذر؟⁽²⁾.

وحاصل تحقيق كلام الرازي: أن القدر عبارة عن جريان الأمور بنظام تأتي فيه الأسباب على قدر المسببات، والحذر من جملة الأسباب، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاذه⁽³⁾.

ويؤيد ذلك من السنة النبوية ما ورد أنه قيل للنبي ﷺ: أ رأيت أدوية تداوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة نتيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال ﷺ: «هي من قدر الله»⁽⁴⁾، وذلك لأن الله تعالى يعلم

(1) إحياء علوم الدين (3 / 202)، الفتاوى لابن تيمية (8 / 69-70).

(2) التفسير الكبير للرازي (5 / 308).

(3) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 210.

(4) سنن الترمذي (4 / 399)، حسن صحيح.

الأشياء على ما هي عليه، وكذلك يكتبها، فإذا كان قد علم أنها تكون بأسباب من عمل وغيره، وقضى أنها تكون كذلك وقدر ذلك لم يجوز أن يظن أن تلك الأمور تكون بدون الأسباب التي جعلها الله أسباباً، وهذا عام في جميع الحوادث⁽¹⁾.

إن قدر الله تعالى وقضاه غير معلومين لنا، إلا بعد الوقوع فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفاً عن موافقة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحُرْمنا المأمول علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا، فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله فيه في هذا العالم، وهو تحريف لمعنى القدر⁽²⁾.

إن القضاء والقدر اللذين ورد في القرآن ذكرهما - وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة - سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون وربط فيه بين الأسباب والمسببات، وبين النتائج والمقدمات سنة كونية دائمة، لا تتخلف والحاصل أن الإسلام لا يسمح أن يضل الإنسان أو ينحرف عن أوامر الله في عقائده ودينه، ثم يعتذر بالقضاء والقدر، ولو صح ذلك لبطلت التكليف وكان بعث الرسل وإنزال الكتب، ودعوة الإنسان إلى دين الله وما يجب، ووعدته بالثواب لأهل الخير وبالعقاب لأهل الشر - باطلاً. لا يتفق وحكمة الخالق الحكيم في تصرفه وتكليفه الرحيم بعباده⁽³⁾.

(1) مجموع الحوادث (8 / 275).

(2) تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور (4 / 138).

(3) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت، ص: 212.

1 - تأثير السبب في المسبب:

إن الذي عليه السلف وأتباعهم وأئمة أهل السنة وجمهور أهل الإسلام المثبتون للقدر إثبات الأسباب، وأن قدرة العبد مع فعله لها تأثير كتأثير سائر الأسباب في مسبباتها، والله تعالى خلق الأسباب والمسببات، والأسباب ليست مستقلة بالمسببات، بل لا بد لها من أسباب أخر تعاونها، ولها - مع ذلك - أضداد تمنعها، والمسبب لا يكون حتى يخلق الله جميع أسبابه، ويدفع عنه أضداده المعارضة له، وهو سبحانه يخلق جميع ذلك بمشيئته وقدرته، كما يخلق سائر المخلوقات، فقدرة العبد سبب من الأسباب، وفعل العبد لا يكون بها وحدها، بل لا بد من الإرادة الجازمة مع القدرة⁽¹⁾.

ولا قال أحد من أئمة المسلمين - لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ولا مالك، ولا أبو حنيفة ولا الشافعي ولا أحمد بن حنبل، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، ولا الليث، ولا أمثال هؤلاء - إن الله يكلف العباد ما لا يطيقونه. ولا قال أحد منهم: إن قدرة العبد لا تأثير لها في فعله، أو لا تأثير لها في كسبه، ولا قال أحد منهم: إن العبد لا يكون قادراً إلا حين الفعل، وإن الاستطاعة على الفعل لا تكون إلا معه، وإن العبد لا استطاعة له على الفعل قبل أن يفعله، بل نصوصهم مستفيضة بما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات استطاعة لغير الفاعل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8 / 487).

- وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: 4].

وقول النبي ﷺ لعمران بن حصين: صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب⁽¹⁾.

والمقصود بتأثير السبب في المسبب، أن خروج الفعل من العدم إلى الوجود كان بتوسط القدرة المحدثة بمعنى أن القدرة المخلوقة هي سبب وواسطة في خلق الله ﷻ الفعل بهذه القدرة، كما خلق النبات بالماء، وكما خلق الغيث بالسحاب، وكما خلق جميع المسببات والمخلوقات بوسائط وأسباب، فهذا حق، وهذا شأن جميع الأسباب والمسببات. وليس إضافة التأثير بهذا التفسير إلى قدرة العبد شركاً، وإلا يكون إثبات جميع الأسباب شركاً، وقد قال الحكيم الخبير: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [الأعراف: 57].

- وقال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ دَاثَ بَهْجَةً﴾ [الشمس: 60].

- وقال تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمُ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: 14].

كما أن تأثير العبد في فعله يتوقف على تحقيق الشرط وانتفاء المانع، فإذا فُسر التأثير بوجود شرط الحادث أو سبب يتوقف حدوث الحادث به على سبب آخر وانتفاء موانع. وكل ذلك بخلق الله تعالى. فهذا حق، وتأثير قدرة العبد في مقدرها ثابت بهذا

(1) فتح الباري على صحيح البخاري (2/ 587).

الاعتبار، وإن فُسر التأثير بأن المؤثر مستقل بالأثر من غير مشاركة معاون ولا معاقق مانع فليس شيء من المخلوقات مؤثراً، بل الله وحده خالق كل شيء لا شريك له ولا ندم له، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

- يقول تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْبٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَكُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا نُنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: 22 - 23].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَقْرَبُ بِشَأْنِ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّي أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: 38] ، ونظائر هذا في القرآن كثيرة⁽¹⁾.

إن من الأسباب ما يعرفه كل إنسان بفطرته مثل الوطء سبب الولد، وإلقاء البذور سبب للزرع، والأكل سبب للشبع، وشرب الماء سبب للري، ومن الأسباب ما يجادل فيه بعض الناس مثل اتباع شرع الله سبب للسعادة في الدنيا والآخرة والخروج على هذا الشرع سبب للشقاوة في الدنيا والآخرة، والدعاء سبب لدفع المكروه ونوال

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية (8/ 134 - 135).

المطلوب، ومن الأسباب ما يخفى على كثير من الناس مثل أسباب الأحداث الاجتماعية وما يصيب الأمم من عز وذل وتقدم وتأخر ورخاء وشدة وهزيمة وانتصار ونحو ذلك، فهذه الأحداث لها أسبابها التي تستدعي هذه النتائج ولا يمكن تخلف هذه النتائج إذا انعقدت أسبابها، فهي كالأحداث الطبيعية من تجمد الماء وجليانه ونزول المطر، فهذه أحداث لها أسبابها التي قدرها الله فمتى تحققت هذه الأسباب تحققت هذه الأحداث وكل الفرق بينها وبين الأحداث الاجتماعية أن الأولى أسبابها منضبطة ويمكن معرفة حصول أكثرها إذا عرفت أسبابها، أما الثانية أي الأحداث الاجتماعية فإن أسبابها كثيرة جداً ومتشابكة، ويصعب الجزم بوقت حصول نتائجها وإن أمكن الجزم بحصول هذه النتائج، والشرع دلنا على هذا القانون العام قانون السبب والمسبب في نصوص كثيرة والمقصود أن ما قدره الله وقضاه إنما قدره بأسباب، فمن أراد الحصول على نتيجة معينة فلا بد من مباشرة السبب المفضي إليها⁽¹⁾.

وما ذهب إليه العلماء المحققون في فاعلية السبب في مسببه بإذن الله تعالى هو ما يتفق مع ظاهر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، وهو المنهج الوسط والطريق الأسد في أعمال النصوص كلها على وجه الجمع دون الاقتصار على بعضها، وهذا ما ذكرناه هو ما ذهب إليه السلف الصالح وتلقاه أهل العلم بالقبول، ولا يخفى أن اعتناق هذا الرأي يفسح الطريق أمام القيام بأعباء خلافة

(1) الإيمان بالقضاء والقدر د. عبد الكريم زيدان، ص: 20.

الإنسان في الأرض والتفكر في سنن الله في الخلق وتوطئة للوقوف على أسبابها ونتائجها، ومن ثم التفاعل مع معطياتها بما يحقق إنانة تحمل المسؤولية بالمكلفين في الدنيا والآخرة، وهو الأمر الذي يوسع ويثري من دائرة الدراسات الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وفق المنهج الإسلامي، مما يعيد لهذه الأمة شهودها الحضاري ووسطيتها الشاملة التي ضمنها لها الشرع الشريف في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] ، وبذلك تعود الأمة إلى أصولها وخيريتها : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] ، وبالأحرى تتخلص من تبعيتها للثقافات الوافدة التي ترزخ تحت وطأتها إلى يومنا هذا رغم عدم انسجامها مع معطيات الشرع وحقائق الفطرة⁽¹⁾.

2- قال ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر»⁽²⁾:

وشرح هذا الحديث:

أن «العدوى»: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح وكما يكون في الأمراض الحسية يكون في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر النبي ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة، فقوله ﷺ: «عدوى» يشمل العدوى الحسية والمعنوية.

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 203.

(2) متفق عليه المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 208)، البخاري رقم 5757، مسلم رقم 2220.

و«الطيرة»: هي التشاؤم بمرئى أو مسموع أو معلوم.

و«الهامة»: فسرت بتفسيرين:

الأول: داء يصيب المرضى وينتقل إلى غيره، وعلى هذا التفسير يكون عطفها على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثاني: طير معروف تزعم العرب أنه إذا قتل القتييل فإن هذه الهامة تأتي إلى أهله وتنق على رؤوسهم حتى يأخذوا بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه تكون في صورة الهامة وهي نوع من الطيور تشبه البومة أو هي البومة، تؤذي أهل القتييل بالصراخ حتى يأخذوا بثأره، وهم يتشاءمون بها فإذا وقعت على بيت أحدهم ونعقت قالوا: إنها تنق به ليموت ويعتقدون قرب أجله وهذا باطل.

و«صفر»: فسر بتفاسير:

الأول: أنه شهر صفر المعروف والعرب يتشاءمون به.

الثاني: أنه داء في البطن يصيب البعير وينتقل من بعير إلى آخر، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

الثالث: صفر شهر صفر، والمراد به النسيء الذي يضل به الذين كفروا، فيؤخرون تحريم شهر المحرم إلى صفر يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً.

وأرجحها أن المراد صفر حيث كانوا يتشاءمون به في الجاهلية، والأزمة لا دخل لها في التأثير، وفي تقدير الله ﷻ فهو كغيره من الأزمنة يقدر فيه الخير والشر فهذه الأربعة التي نفاها الرسول ﷺ تدل على وجوب التوكل على الله، وصدق العزيمة ولا يضعف المسلم أمام هذه الأمور، والنفي في هذه الأربعة ليس نفيًا للوجود، لأنها موجودة ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله فما كان منها سبباً معلوماً فهو سبب صحيح، وما كان منها سبباً موهوماً فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه ولسببته، فالعدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»⁽¹⁾. أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لثلاث تتنقل العدوى وقوله ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»⁽²⁾، الجذام: مرض خبيث معد بسرعة ويتلف صاحبه، فالأمر بالفرار حتى لا تقع العدوى، وفيه إثبات العدوى لتأثيرها، لكن تأثيرها ليس أمر حتمي بحيث تكون علة فاعلة، ولكن أمر النبي ﷺ الفرار من المجذوم وأن لا يورد ممرض على مصح، من باب تجنب الأسباب، لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]، ويقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى، فإن قيل: إن الرسول ﷺ لما قال: «لا عدوى»، قال رجل: يا رسول الله أرايت الإبل تكون في

(1) البخاري رقم 5771.

(2) البخاري رقم 5707.

الرمال مثل الضبا فيدخلها الجمل الأجر ب فتجرب؟ فقال النبي ﷺ: «فمن أعدى الأول؟»⁽¹⁾، فالنبي ﷺ أشار بقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فمن أعدى الأول إلى أن المرض انتقل من المريضة إلى هذه الصحيحات بتدبير الله ﷻ، فالمرض نزل على الأول بدون عدوى بل نزل من عند الله ﷻ، والشيء قد يكون له سبب معلوم وقد لا يكون له سبب معلوم وجرب الأول ليس معلوماً إلا أنه بتقدير الله تعالى، وجرب الذي بعده له سبب معلوم ولو شاء الله تعالى ما جرب، ولهذا أحياناً تصاب الإبل بالجرب ثم يرتفع ولا تموت. وكذلك الطاعون والكوليرا أمراض معدية قد تدخل البيت فتصيب البعض فيموتون ويسلم آخرون ولا يصابون، فالإنسان يعتمد على الله ويتوكل عليه، وقد جاء أن النبي ﷺ قدم عليه رجل مجذوم فأخذ بيده وقال له: «كل»، أي من الطعام الذي كان يأكل منه الرسول ﷺ لقوة توكله ﷺ، فهذا التوكل مقاوم لهذا السبب المعدي، وهذا الجمع الذي ذكرنا أحسن ما قيل في الجمع بين الأحاديث وإذا أمكن الجمع وجب لأن فيه إعمال الدليلين⁽²⁾.

3 الجزء الأخرى والأسباب:

لم يقتصر قانون السببية على إقامة الكون وتسييره فحسب ولا على الثواب والعقاب الدنيوي وحده، وإنما تجاوز ذلك ليكون الأصل أيضاً في الثواب والعقاب الآخروي، وذلك من كمال العدل الرباني والحكمة البالغة، والأصل في ذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ

(1) المجموع الثمين لابن عثيمين (2/ 212).

(2) المصدر السابق نفسه.

اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿٤٧﴾ [النساء: 147] ، فهذه الآية دالة على اعتبار سنة الأسباب حتى في الجزاء الأخروي، إذ لا عذاب إلا بكفران، فإذا انتفى السبب . وهو الكفر سواء الاعتقادي أو العملي . فلا عذاب بل هو نعيم ودخول في معية المؤمنين كما دلت على ذلك الآيات السابقة لهذه الآية، وهي التي بيّنت طريق الخلاص للمنافقين من نفاقهم وسبيل قبول الله أعمالهم، فقالت بعد توعد المنافقين بالدرك الأسفل من النار: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146] .

والآيات في اعتبار الأسباب في الجزاء الأخروي كثيرة، ومنها على سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِغَةِ﴾ [الحاقة: 24] .

- وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: 19] .

- وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [٧١] ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ ﴿[آل عمران: 181-182] .

- وقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وَفَاءً ﴿[النبا: 24-26] .

- وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّمَا رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: 95]⁽¹⁾.

4 - الحث على طلب الأسباب في الأمور المكفولة:

ترشدنا الآيات القرآنية إلى أن الأمر الشرعي قائم على حث الخلق على الأخذ بالأسباب حتى في الأمور التي كفلها الله له بموجب فضله وكرمه، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [المك: 15].

فقد تكفل الله برزق مخلوقاته بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: 6].

- وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُعَدُّونَ﴾ [الذاريات: 22].

- وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: 60]. ولكنه سبحانه جعل طريق وصول هذا الرزق وتحصيله في الأخذ بالأسباب والسعي والكسب في الحياة⁽²⁾.

ومع تقدير الله للعبد في الرزق، فيجب عليه طرق الأسباب في طلب الرزق، وهذا لا ينافي التوكل، وزيادة الرزق جعل الله لها أسباباً منها:

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 145.

(2) المصدر نفسه، ص: 146.

أ - صلة الرحم: قال ﷺ: «من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»⁽¹⁾.

ب - تقوى الله: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3].

وكذلك اجتناب البغي، وظلم العباد، والرياء، وأكل مال اليتيم.

وكذلك الأسباب الطبيعية والمادية، كالسعي للرزق وبذل الجهد، واختيار الأزمان المناسبة وحسن اختيار المكاسب النافعة ونحو ذلك، وهذه الأسباب والمسببات كلها بقدر الله تعالى ومشيئته⁽²⁾.

وما أجمل ما قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه لبعض الناس في زمنه عندما قال: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، ويقول: اللهم أرزقني وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما يرزق الله تعالى بعضهم من بعض، أما قرأتم قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]⁽³⁾.

5. مراعاة صورة الأسباب في الخوارق:

إذا كان الأصل في السنن الجارية هو تعلق المسببات بأسبابها، وارتباط النتائج بمقدماتها، فإن الأصل لا يتغير في السنن الخارقة

(1) البخاري رقم 1961.

(2) أصول الاعتقاد في سورة يوسف، ص: 501.

(3) الإيمان بالقدر للقرضاوي، ص: 56.

المبنية على خرق العادة والأسباب، وعدم التغيير فيها يتمثل في مراعاة صورة الأسباب في تلك الخوارق ليظل قانون السببية عالماً بذهن المكلف، ومرتبطاً بإقامة الكون وحركة الحياة، والقرآن الكريم زاخراً بالآيات التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدر⁽¹⁾، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَبْهَةً﴾ [البقرة: 60]، وفي الكلام حذف تقديره: فاضرب فانفجرت⁽²⁾.

قال القرطبي: وقد كان الله تعالى قادراً على تفجير الماء وقلق الحجر من غير ضرب، ولكن أراد أن يربط المسببات بالأسباب حكمة منه للعباد في وصولهم إلى المراد، وليرتب على ذلك ثوابهم وعقابهم في الميعاد⁽³⁾.

6 . تهيئة الأسباب لوقوع مراد الله:

إذا أراد وقوع شيء في هذا الوجود هياً له أسبابه التي يقع بها، وذلك لأنه جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرم إلا بمشيئة الله ﷻ، كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات، وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب . حقيقة . في الوصول إلى مسبباتها، وقد قيل إذا أراد الله أمراً يستر أسبابه، ومن التطبيقات الواضحة لهذا العنوان في القرآن الكريم ما جاء في حيثيات غزوة بدر وملابساتها، حيث هياً الله تعالى

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 147.

(2) المصدر نفسه، ص: 148.

(3) الجامع لأحكام القرطبي (1 / 419).

أسباب النصر للمسلمين في هذا اليوم،، ولم يجعل نصرهم . في ظاهر الأمر . من قبيل الخوارق المحضة التي ليس للسبب فيها نصيب، خاصة في مثل هذا الموقف الشديد الذي عانى فيه المسلمون من قلة العدد والعتاد، كل ذلك ليتبين للمسلمين قبل غيرهم أن السنن الإلهية والقوانين الربانية التي قام عليها نظام الكون لا تتخلف عادة، وقد تجلت هذه الأسباب، وظهرت فيما جاء في قوله تعالى عن غزوة بدر: ﴿إِذْ يُفَشِّكُمُ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِّنْهُ وَيَزِيلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِيحَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: 11].

فإن اغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر، لأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب⁽¹⁾.

7. الأسباب تعمل مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع:

فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع⁽²⁾، ولا بد من تمام الشروط وزوال الموانع . أي في انتاج الأسباب . وكل ذلك بقضاء الله وقدره وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه، بل لابد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولا بد أيضاً من صرف المواقع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا

(1) تفسير التحرير والتنوير (9/ 278).

(2) مجموع الفتاوى (8/ 133).

يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى⁽¹⁾.

- قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ (١٦٦) ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَّلْنَا الْمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ [الواقعة: 63 . 64] أي: إذا كانت منكم الحرثة والبذر مع اعانتنا لكم على ذلك . فإن إتمام الزرع والإثمار وتوفير الشروط وإزالة الموانع من شأننا نحن، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَابًا وَأَثْمًا أَنْ تَكْفُرُوا﴾ [البقرة: 21] .
بِهَجْرَةٍ مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [الثلث: 60] .

فقد ذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلق الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغتراراً بالسبب فبودر بالتأكيد بأن الله خلق الأسباب وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب، وتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتفاع بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع والشجر، أو يقتلها، ولذلك جمع بين ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ وقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ تنبيهاً على إزالة الشبهة⁽²⁾.

8. إنكار قانون السببية يؤدي إلى إبطال حقائق العلوم:

لقد ثبت بنص القرآن أن الأسباب الشرعية هي محل حكم الله ورسوله ﷺ وهي في اقتضائها لمسبباتها قدراً، فهذا شرع الرب وذلك قدره، وهما خلقه وأمره، والله له الخلق والأمر، ولا تبديل

(1) مجموع الفتاوى (8 / 167).

(2) تفسير التحرير والتنوير (20 / 11).

لخلق الله، ولا تغيير لحكمه، فكما لا يخالف سبحانه بالأسباب القدرية أحكامها، بل يجريها على أسبابها وما خلقت له، فهكذا الأسباب الشرعية لا يخرجها عن سببها وما شرعت له، بل هذه سنته شرعاً وأمرأ، وتلك سنته قضاءً وقدرأ، وسنته القدرية قال تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: 43].

فالمسببات مرتبطة بأسبابها شرعاً وقدرأ، ولذلك فطلبها من غير أسبابها مذموم، كما أن إنكار الأسباب لأن تكون موصلة لها بأنها أمر مردود، بل أن النتائج المترتبة على إنكار قانون النسبية كافية لهدم حقائق العلوم كلها، فإن العلوم جميعها تستند إلى هذا القانون⁽¹⁾.

ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص في العقل، وهو طعن في الشرع أيضاً فالله تعالى يقول: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَلْحَىٰ يَدِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجنات: 5].

- وقال تعالى: ﴿يَهْدِي يَدِ اللَّهِ مَنْ أَتَبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَكِ﴾ [المائدة: 16]⁽²⁾.

والحاصل أنه قد ثبت بالقطع أنه لا مكان في هذا الوجود للمصادفة العمياء ولا للفلتة العارضة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49].

- وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2].

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 158.

(2) المصدر نفسه، ص: 158.

- وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 19].

- وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 216].

والأسباب التي تعارف عليها الناس قد تتبعها آثارها وقد لا تتبعها، والمقدمات التي يراها الناس حتمية قد تعقبها نتائجها وقد لا تعقبها، ذلك أنه ليست الأسباب والمقدمات هي التي تنشئ الآثار والنتائج، وإنما هي الإرادة التي تنشئ الآثار والنتائج وتهيئ الظروف لتحقيقها، كما تنشئ الأسباب والمقدمات ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: 1]، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 30].

والمؤمن يأخذ بالأسباب لأنه مأمور بالأخذ بها والله هو الذي يُقدِّر آثارها ونتائجها، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله وإلى حكمته وعلمه هو وحده الملاذ الأمين، والنجاة من الوسواس والهواجس: ﴿الشَّيْطَانُ يَبْغِيكُمْ أَلْفَقْرًا وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدْكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 268] ⁽¹⁾.

9. منازعة الأقدار بالأقدار:

من الأصول القطعية مباشرة الأسباب وعلى هذا فإن تركها قذح في الشرع مما يدحض إدعاءات الجهال والمغرضين، ونزيد هنا فنقول

(1) السنن الإلهية د. مجدي عاشور، ص: 161.

أن صاحب الإيمان بالقدر ينازع القدر بالقدر، بمعنى أن لا يستسلم للقدر مادام له دافع أو رافع أو مانع، فيأخذ من الأسباب ما يحقق ذلك، قال الشيخ عبد القادر الجيلاني: كثير من الرجال إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي روزنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، وما قاله هذا الشيخ الجليل العارف بالله حق، ويريد بقوله رحمه الله تعالى أنه يدافع المقذور مادام في مدافعتة مجال مستعيناً بالله تعالى مبتغياً وجهه، وتفصيل ذلك أن المسلم مطالب بأخذ الوقاية من المحذور لئلا يقع ويرفعه ودفعه إذا وقع، فمن الأول أخذ الحمية لئلا يقع المرض والابتعاد عن محل الوباء لئلا يصاب به الإنسان، والتحصن وراء الجدر والحصون في الحروب ووقاية من العدو.

وليس في هذه الوقاية ومباشرة أسبابها مناقضة للإيمان بالقدر، وإنما أخذ بقدر لمنع قدر، والقدر مادام مجهولاً عندنا وهو محتمل الوقوع فنحن نباشر أسباب عدم وقوعه، فإن كان مكتوباً عند الله وقوعه لم يتيسر لنا مباشرة أسباب دفعه، أو تتيسر لنا هذه الأسباب ولكن لا تؤدي إلى نتيجتها لوجود مانع يمنع من افضائها إلى مسيبتها، والمقصود هنا أن مباشرة الأسباب لمنع وقوع ما يحتمل وقوعه من الأقدار ليس فيه مناقضة للمعنى الصحيح للقدر، وإنما هو أخذ بقدر لمنع قدر لأن السبب والمسبب بقدر الله تعالى جاء في الحديث الشريف: قيل يا رسول الله أرأيت أدوية نتدوى بها ورقى نسترقى بها وتقاة ننتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»⁽¹⁾، فإذا كان من قدر الله أن لا يصاب الإنسان بالمرض قدر الله له مباشرة ما يدفع به وقوع المرض، وعندما وصل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مشارف الشام وعلم بنزول الطاعون فيهم وهم

(1) سنن الترمذي (4/399) حسن صحيح.

بالرجوع قال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أفرار من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال رضي الله عنه: لو كان غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله ونقع في قدر الله، ثم قال عمر رضي الله عنه: ما معناه: لو كان عندك غنم أو إبل وأمامك أرض مجدبة وأخرى مخصبة، فإذا نزلت بالمجدبة أو المخصبة أو تحولت من المجدبة إلى المخصبة، فكل ذلك بقدر الله ⁽¹⁾.

ومن النوع الثاني من منازعة الأقدار بالأقدار مباشرة الأسباب الرافعة للقدر بعد وقوعه كتناول الدواء لرفع المرض، وطرد الأعداء والكفرة من ديار المسلمين بعد تسلطهم بأعداد العدة لذلك ثم قتالهم، ومثاله أيضاً انحباس المطر يرفع بالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفاره، كما هو معروف في الفقه في باب صلاة الاستسقاء، وكما دل عليه قوله تعالى حكاية عن نبيه نوح عليه السلام وما قاله لقومه، قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّي إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٠٢﴾﴾ [نوح: 10 - 11]. فالالتجاء إلى الله والإنابة إليه واستغفارة من أهم الأسباب لدفع المكروه ورفع بعد وقوعه، ومنعه من الوقوع قبل أن يقع، وهذه معاني يفقهها أهل الإيمان، لا أهل الكفر والجهالة والعصيان ⁽²⁾.

رابعاً: الدعاء والقدر:

الدعاء مثل سائر الأسباب، كالتوكل والصدقة... سبب لجلب المنافع ودفع المضار ⁽³⁾، ثم الدعاء - مع ثبوت كونه سبباً - داخل في

(1) الغيمان بالقضاء والقدر عبد الكريم زيدان، ص: 29.

(2) المصدر نفسه، ص: 30.

(3) الفتاوى (10 / 550).

القضاء، ولا خرج عن القضاء، فإن الدعاء من جملة ما سبق به القضاء، لأن الله سبحانه أحاط بكل شيء علماً، وقدر كل شيء تقديراً، ولا يمكن أن يخرج شيء عن قضائه، فلهذا الدعاء نفسه داخل القضاء، إذا قدر الدعاء وأنه سبب لكذا فلا بد أن يدعو الرجل وأن يتسبب ذلك فيما جعله الله سبباً، فالدعاء سبب لجلب النفع، كما أنه سبب لدفع البلاء، فإذا أقوى منه دفعه، وإن كان سبب البلاء أقوى لم يدفعه، لكن يخففه ويضعفه، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء ولا أبلغ في حصول المطلوب، ولهذا أمر ﷺ عند انعقاد أسباب الشر بما يدفع موجبها بمشيئة الله تعالى وقدرته من الصلاة والدعاء والذكر، والاستغفار والتوبة، والاحسان بالصدقة والعتاقة، فإن هذه الأعمال الصالحة تعارض الشر الذي انعقد سببه، كما في الحديث: «إن الدعاء والبلاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان»⁽¹⁾، وهذا كما لو جاء عدو فإنه يدفع بالدعاء وفعل الخير وبالجهاد له، وإذا هجم البرد يدفع باتخاذ الدفء، وكذلك الأعمال الصالحة والدعاء⁽²⁾. ويدل على دفاع العدو بالدعاء مع الجهاد قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «هل تنصرون إلا بضعفائكم»، ولفظ النسائي: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم»⁽³⁾، والحاصل إن من جملة القضاء ردّ البلاء بالدعاء، فالدعاء داخل تحت القضاء وليس خارجاً عنه⁽⁴⁾.

(1) صحيح الجامع للألباني (6 / 241) رقم 7616.

(2) الدعاء ومنزلته من العقيدة جيلان العروسي (1 / 356).

(3) البخاري (6 / 88) رقم 2896، النسائي (6 / 37) رقم الباب 37.

(4) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 357).

1 . دلالة القرآن الكريم على ذلك :

- قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ

دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

- وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلنِّسَاءِ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا لِلرِّجَالِ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: 32].

إن الله ﷻ نهى في هذه الآية عن الحسد، وتمني زوال نعمة الغير، وأمر بسؤاله من فضله فدل على أنه بسبب السؤال يعطي مثلما أعطى لذلك الذي فضله، وربما يعطي أكثر، فلو كان الدعاء والسؤال لا أثر له في إعطاء السائل ما تمناه وسأله، لزم أنه لا فائدة في الأمر به في هذا المقام، وهذا يخالف ما يقتضيه سياق الآية⁽¹⁾.

وقد وردت آيات كثيرة جداً، ذكر الله فيها ما وقع لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين من المحن والبلايا والشدائد العظام، فاستغاثوا بربهم وتضرعوا له، وابتهلوا إليه، فاستجاب الله لهم، وكشف عنهم تلك المحن بعد دعائهم، وقد حكى الله لنا ألفاظ دعواتهم وصيغ ابتهالاتهم لثقتدي بها، وناخذ العبر والدروس، ومن تلك الدروس التي ناخذها تأثير الدعاء وفائدته العظيمة في جلب المنافع ودفع المضار، وأنه سمة العبودية، وأنه الغذاء الروحي لاسيما عند نزول الشدائد المدلهمة⁽²⁾، ومن ذلك:

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 359).

(2) المصدر نفسه (1 / 360).

أ. مما حكى الله لنا عن نوح عليه السلام مما يدل على تأثير الدعاء:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات: 75]، ما أصرحها في تأثير الدعاء وأوضحها وأبينها من حجة قاطعة، وما أبلغها من برهان ساطع، ومثلها قوله تعالى في قصة نوح أيضاً: ﴿وَنُوْحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَعْرِفْنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: 76-77].

ب. دعاء أيوب عليه السلام:

- قال تعالى: ﴿وَإِيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٦﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: 83 . 84]، تدل الآيتان على المقصود من عدة أوجه، منها العطف بالفاء السببية في الموضوعين: فاستجبنا، فكشفنا، ودلالة فاستجبنا وكشفنا اللغوية ودلالة السياق هذه الدلالات الواضحة على تأثير الدعاء⁽¹⁾.

ج. دعاء يونس عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْلَبًا فَقَلْنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْغُرِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: 87 . 88].

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 362).

فدلّت الآيتان على أن الدعاء هو السبب في نجاته من عدة أوجه، منها إلغاء السببية، ومنها كلمتا: استجبنا ونجينا كما دلت على أن هذا ليس خاصاً به بل المؤمنون عامة إذا وقعوا في شدة واستغاثوا بربهم فهو ينجيهم، كما دلت أيضاً على أنه لولا الدعاء لما نجا من هذا الكرب العظيم ولبقي في بطن الحوت، وقد صرحت بذلك آية أخرى قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّمْ كَانَ مِنِ الْمُسَيِّئِينَ﴾ (١٤٣) ﴿لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٤٤) [الصفات : 143 . 144].

فكلمة لولا في مثل هذا الموضع تدل على امتناع الجملة الثانية لوجود الأولى⁽¹⁾، وهذا صريح قاطع في أن الدعاء هو السبب في نجاته ولو لم يحصل الدعاء لما نجا ولبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة⁽²⁾.

د - دعاء زكريا عليه السلام:

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ (٨٩) ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَىٰ وَأَسْلَمًا وَوَهَبْنَا لَهُمُ زَوْجَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ (٩٠) [الأنبياء : 89 . 90].

ففي هذا ترتيب للاستجابة على النداء، كما أن فيه تعليلاً للاستجابة بكونهم مسارعين في الخيرات، وداعين الله رغبة ورهبة⁽³⁾.

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 362).

(2) المصدر نفسه (1/ 362).

(3) المصدر نفسه (1/ 363).

هـ - في قصة موسى وهارون في استغاثتهما بالله :

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: 88-89].

فصرحت الآيتان بإجابة دعوتهما واستغاثتهما بالله تعالى وأن ذلك عقب ابتهالهما إلى الله تعالى فدل هذا على ترتيب الإجابة على الدعاء ترتب المسبب على السبب⁽¹⁾ وفي قوله تعالى في قصة تضرع موسى وابتهاله إلى الله قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿١٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿١٦﴾﴾ إلى أن أجابه الله بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيَ سُؤْلُكَ يَمْؤِسْنَ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: 36]، ما أوضحها في الدلالة على تأثير الدعاء في الإجابة⁽²⁾.

و - دعاء المؤمنين من الأمم السابقة :

- قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُسُودِهِمْ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَكَمُوهُمْ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ وَقَتْلَ دَاوُدَ جَالُوتَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: 249 . 250].

- وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ نَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ نَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: 147-148].

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 364).

(2) المصدر نفسه (1/ 364).

2 - دلالة الفطرة على تأثير الدعاء بإذن الله :

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ الشُّوْبَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62].

فالآية صريحة الدلالة على أن دعاء المضطر هو السبب في إجابة سؤاله وكشف السوء عنه، وهذا من آيات الله العظيمة الدالة على وحدانيته وتفرده بالربوبية والألوهية ولهذا أعقبه بقوله: ﴿أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾.

الإنسان من طبيعته إذا وقع في شدة وضيق عليه تحركت فطرته ومشاعره، واتجه إلى الله ونسى ما كان يدعو من قبل وهنا يوقن أنه لا منقذ إلا الله، وتنكشف عنه الحجب، ويزول الرين، وتذهب الغشاوة وينطرح بين يدي الله منكسراً متواضعاً مبتهلاً متضرعاً باكياً، ويجأر إلى الله كاشف السوء مجيب المضطرين غياث المغيثرين منقذ الهالكين، وجابر المنكسرين ومنقذ الغرقى، وسامع النجوى، فكم من ملحد نزلت به ضائقة آب إلى الله⁽²⁾، وكم من شارد فاسق وقع في مأزق تاب إلى الله ورجع إلى طاعته، فالفطرة خير شاهد وأقوى دليل وأنصح برهان، وأوضح حجة لأنها لا تحتاج إلى تركيب مقدمة وإقامة أدلة جدلية واستنتاج ودليلها لا يمكن مقاومته، ولا دفعه بالشبهات والوساوس، ألا ترى الإنسان إذا ما وقع في معصية يتجه مباشرة إلى السماء ويرفع يديه قائلاً: يا رب يا رب وهذه الحالة تهجم عليه وتسيطر على تفكيره وشعوره وتجعله يشعر أنه لا منقذ

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 359).

(2) العقيدة في الله لعمر الأشقر، ص: 67، الدعاء ومنزلته من العقيدة (1 / 368).

ولا منجى ولا مغيث إلا الله ﷻ، فلو لم تدل الفطرة على تأثير الدعاء لما اتجهت إلى الدعاء ولكانت تلجأ إلى وسائل أخرى للاستغاثة والاستعانة⁽¹⁾.

وقد ذكر الله ﷻ طبيعة الإنسان هذه في عدة آيات منها:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: 12].

- وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَلَهُ نِعْمَةٌ مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: 8].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ (٥١) [فصلت: 51].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعْمَرَ فَعِنَ اللَّهُ تَرَّ إِذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾ (٥٣) [النحل: 53].

- وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَبَ بِكُمْ رِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِن آجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٣٧) [يونس: 22].

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية (1/ 368).

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: 67].

- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَاجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ [لقمان: 32].

فالإنسان في مثل هذه الشدائد ينسى تلك الأشياء التي كان يتعلق بها ويرجع إلى ربه، فتحصل له معرفة قوية من أقوى ما يكون المعارف، فإن المعارف التي تحصل في النفس بالأسباب الاضطرارية أثبت وأرسخ من المعارف التي ينتجها مجرد النظر القياسي الذي ينزاح عن النفوس في مثل هذه الحال⁽¹⁾.

3 دلالة السنة النبوية على تأثير الدعاء:

وأما السنة الدالة على تأثير الدعاء، فأكثر من أن تحصر فقد تواتر عنه ﷺ أمران: فعلة للدعاء والثاني: حثه ﷺ وترغيبه في الدعاء⁽²⁾، ومن الأدلة ما يلي:

أ - حديث أنس بن مالك: قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال: يا رسول الله هلك الكراع وهلك الشاء. وفي رواية: وجاع العيال، وفي رواية أخرى: هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يسقينا فمد يديه ودعا، وفي رواية وما

(1) الدعاء ومنزله من العقيدة (1/ 369).

(2) المصدر نفسه (1/ 366).

نرى في السماء قزعة، فالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ، فمطرنا من الجمعة إلى الجمعة، ثم جاء ذلك الرجل أو غيره في الجمعة المقبلة فقال: تهدمت البيوت وانقطعت السبل فأدع الله يمسكها، فرفع يديه فقال: «اللهم حوالينا ولا علينا» فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت⁽¹⁾.

ب - حديث النزول: وهو حديث مشهور متواتر، ومن طرقه، ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجب له؟ ومن يسألني فأعطيه؟ ومن يستغفرني فأغفر له؟»⁽²⁾

إن المشاهدة لتأثير الدعاء لمن أكبر الأدلة وأصدقها برهاناً وأقواها حجة، فنحن رأينا وشاهدنا في أنفسنا ومن حولنا تأثير الدعاء، فمن منا لا يقع في شدة وكرب وضيق ثم يستغيث بربه فلا يرى أثر ذلك؟ فنحن نشاهد في حياتنا وأيامنا القصيرة وقائع لنا ولغيرنا يحصل فيها إجابة الدعاء بعد يأس وقنوط من المخلوقات، وبعد انقطاع السبل والحيل فهذا يكفي وحده للدلالة. والحق الذي لا مرية فيه أن الدعاء سبب من الأسباب وأن له تأثيراً في جلب المنافع ودفع المضار، كسائر الأسباب المقدر والمشروعة، وأنه لا منافاة بين القدر والدعاء، فالدعاء من جملة ما سبق به القدر وتضمنه

(1) البخاري رقم 932، مسلم رقم 897.

(2) فتح الباري على صحيح البخاري (3/ 29)، رقم 1145، مسلم رقم 758.

القدر السابق⁽¹⁾.

ولاشك أن الله ﷻ هو الذي حرك العبد إلى الدعاء ويسره له وهو الذي قذف في قلب العبد الحركة إلى الدعاء وألهمه التضرع والابتهاال والانطراح بين يديه، ووفقه لذلك وصرف عنه الموانع من استكبار وكسل وغير ذلك، فهذا الخير منه ولولا الله لما دعا العبد. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه⁽²⁾.

فإذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه دعاءه والاستعانة به وجعل استعانته ودعائه سبباً للخير الذي قضاه له⁽³⁾.

(1) الدعاء ومنزلته من العقيدة (1/ 374).

(2) المصدر نفسه (1/ 375).

(3) المصدر نفسه (1/ 375).